جمال حمدان: بين الاعتكاف الحضاري والعودة المستنيرة

مصطفى محمد طه(*)

لم يكن جمال حمدان ـ فيلسوف الجغرافيين وجغرافي الفلاسفة ـ أكاديمياً من هؤلاء الذي حصروا أنفسهم داخل شرنقة الجامعة، التي تحدّ من انطلاقة المفكرين نحو التأصيل المنهجي، والإبداع الحضاري، بل إنه تمرد على حصار الأكاديمية الضيق هذا، وانطلق خارج أسوار الجامعة، لكي يحقق مشروعه الفكري الأصيل.

وفي سبيله لتحقيق هذا المشروع، قام بتمزيق كل الحجب الكثيفة لهذا النسق المعرفي البالي، ولا سيما بعد أن قلبت الجامعة له ظهر المجن، وبخسته حقّه الشرعي في الارتقاء الوظيفي، وضاقت ذرعاً بنبوغه الثقافي ذي الدينامية المتفجرة، التي كان يحاول جاهداً إضفاءها على نتاجه الفكري المتفرد في الحقل الجغرافي، الذي جعل منه عالماً رحيباً له آفاقه وبصماته الحيَّة، وذلك عبر معطياته الثرة، التي كان لها وضعية متميزة في واقعنا الثقافي المعاصر مصرياً وعربياً.

ومع هذا فجمال حمدان، لم يخرج من الجامعة هائماً على وجهه لا يدري إلى أين المسير، بل يمّم وجهه شطر المحراب الحقيقي للعلم ـ المكتبة ـ منطلقاً بروحه الوثابة، مرخياً لها العنان صوب الآفاق الرحبة للمعرفة والعلم. وبذلك يكون قد واصل استكمال تلك المسيرة العلمية الفعَّالة التي بدأ خطواتها الأولى داخل أسوار الجامعة، عبر محاولاته الدائبة التي كانت تهدف إلى تأصيل قواعد علم الجغرافيا ـ الجسر الحيوي بين العلوم البحتة والإنسانية ـ من أجل تحويله ـ على يديه ـ من مجرد كونه علم وصفي، إلى علم ديناميكي ذي حيوية منهجية، وقواعد وأصول فضلاً عن النزوع الفلسفي الذي يسهم في تغيير الواقع الراهن، وذلك من خلال إضفاء الطابع الحضاري على معطياته البحثية في سياق التغيير الاجتماعي، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين،

(*) مصطفى محمد طه (باحث آثاري) اسيوط ـ مصر.

الذين درسوا الظاهرة الحمدانية، التي تمثل في الحقيقة نقلة نوعية في واقعنا الثقافي المعاصر، ولم تحسن مصر ولا العالم العربي الاستفادة الموضوعية منها بعد.

وفي ضوء هذا المنطلق، يمكن القول بأن جمال حمدان، لم ينعزل عن حركية المجتمع النزّاعة دوماً وأبداً إلى الارتقاء الحضاري الشامل، ولعل مرجع هذا هو أن جمال حمدان لم ينزوِ في بيته - الضيق مكانياً والرحب حضارياً - الذي كان بمثابة الخدر الآمن الذي احتضن عبقرية جمال حمدان ذي الفكر الوقّاد. ومن هنا يكون جمال حمدان قد اعتكف اعتكافاً حضارياً عن مجتمعه وواقعه الراهن، وذلك لأنه عاد إلى مجتمعه عودة مستنيرة، تبلورت القسمات البارزة لها عبر معطياته الفكرية التي جسدت وبكل الصدق ملامح وآفاق هذه الشخصية العلمية الرائدة.

ولقد كان جمال حمدان، يؤمن - وعن قناعة جازمة - حين اعتكف عن المجتمع وإيقاع الحياة الصاخب، بأن الاعتكاف في حقيقته - وفقاً للمنظور الحمداني - هو ضرورة حضارية، ولا سيّما عندما تحيط بالإنسان تيارات حياتية هَوجاء تعرقل مسيرته الزاحفة عن الانطلاق. وإزاء هذا، يمكن القول بأن الاعتكاف في التصور الحمداني، لم يكن يعني الانفصام عن روح العصر، الذي قُدِّر له أن يعيش فيه. فجمال حمدان - الإنسان والمفكر - لم يتنكر أبداً للهوية الإسلامية أو الذات الحضارية لأمته أو لخصوصية مصر، سواء نظرنا إليها من المنظار الجغرافي أو الحضاري، وإنما كان مستقلاً عن إيقاع الحياة الصاخب، كما عكس ذلك نتاجه الفكري الثري، الذي تبلورت أبعاده عبر المعطيات العلمية الحمدانية المتباينة.

ولعلّ الذي يضفي على اعتكاف جمال حمدان عن مجتمعه ثم عودته المستنيرة إليه نوعاً من التميّز، هو أنّ الرجل قد سأل نفسه سؤالاً مصيرياً - يعجز الكثيرين عن سؤاله لأنفسهم - ألا وهو: ماذا تريد منه؟ - وفي إجابته الدقيقة عن هذا التساؤل، خلص أخيراً إلى حتمية الاعتكاف عن السلبيات القاتلة لهذا المجتمع، دون أن ينسى ضرورة الانفتاح الواعي على المعطيات المعرفية للعصر في إطار تخصصه العلمي الدقيق، الجغرافيا بفروعها الشتى، فضلاً عن أن يتزود بمعارف متنوعة، أضفت على تكوينه الثقافي طابعاً من التفرد، ندر أن نجده عند أمثاله من الأكاديميين المعاصرين له.

وفي هذا السياق، يمكن التأكيد على أن جمال حمدان عندما انتهج نهج الاعتكاف، كمنزع سلوكي لحياته، لم يكن نشازاً في هذا المضمار الحيوي، بل إن التاريخ البشري شهد نماذج عدة، للعديد من صفوة البشر الذين اعتكفوا عن مجتمعاتهم، لمّا رأوا أن النسق الحياتي لهذه المجتمعات لا يليق بهم ولا ينسجم مع تصوراتهم فاعتزلوها، ولما أحسّوا في أنفسهم القدرة على تغييرها عادوا إليها عودة مستنيرة، ساعدت هذه المجتمعات على التغيير الحضاري الشامل وبذلك تسنّى لها الانعتاق من ربقة التخلّف الضارب بأطنابه في جميع مناحي الحياة المتباينة.

ولقد قدَّم أرنولد توينبي (1889 ـ 1975م)، فيلسوف التاريخ المعاصر، نماذج حيَّة، تؤكد مدى موضوعية هذا المنزع السلوكي عن طريق الاستقراء الجيد لحالات الأفراد المبدعين، ولا سيما في مجال الدين، إذ إن الحياة الروحية عند توينبي هي المحك الحقيقي لرقي المجتمعات الحضارية. وقد لاحظ توينبي ـ عبر استقرائه التاريخي ـ أنّ مسار حياة هؤلاء الصفوة، قد مرَّ بمرحلتين هما[1]:

المرحلة الأولى: «الاعتزال (الاعتكاف)» عن المجتمع، الذي ينتمون إليه وخصوصاً سلبياته، حيث تتاح لهم فرصة نضج الطاقات والارتقاء الروحي، وهذه العزلة لم تتسَّم بأنها مرحلة من الانفصال عن التيار المنحدر لمجتمع في طور الانحلال. وقد تكون هذه العزلة من اختيار المخلِّص نفسه وبمحض إرادته هروباً من مجتمعه، ولكنها مرحلة لازمة لفترة الاستنارة الروحية[2].

المرحلة الثانية: «العودة المستنيرة» حيث يقوم المخلِّص بالدعوة إلى قيم عليا جديدة، يناشد أفراد مجتمعه أن يتساموا من أجل ارتقاء المجتمع ـ وقد فعل ذلك جمال حمدان في سياق حياته الاعتكافية ـ وقد قدّم توينبي الأمثلة الحيَّة، التي تدل على أهمية هذه المرحلة، من واقع تاريخ الأديان السماوية والوضعية. وفي هذا الصدد يقول: «من ذلك أن صعود النبي موسى ـ عليه السَّلام ـ إلى الجبل لميقات ربه، يعد فترة من التجلي الروحي، عاد بعدها حاملاً الألواح، ومبشراً بالناموس، أول تشريع سماوي على الأرض، وبوذا الذي قضى سبع سنوات من العزلة يفكر في آلام الناس، وينشد الخلاص ثم يعود إلى المجتمع بعد أن حقق لنفسه مرحلة الاستنارة. والسيد المسيح ـ عليه السَّلام ـ الذي فرَّ إلى مصر، هرباً من طغيان الحاكم الروماني، ثم عاد إلى القدس الشريف تستقبله الجماهير، والنبي محمد ـ صلّى الله عليه وسلَّم ـ الذي تعبَّد في غار حراء السنوات ذات العدد، حتى جاءه الوحي، فعاد إلى قومه مبشراً بالدعوة الإسلامية الخالدة. ومرحلة الاعتزال والعودة تجدهما أيضاً في حياة المخلصين الذين استجابوا للتحدي بنجاح في مرحلة انهيار المجتمعات سواء من الصوفية (أبو حامد الغزالي)، أو القدِّيسين والأولياء أو الساسة أو المفكرين، والطاقة التي يفجرها المخلص بعد «العودة المستنيرة» تشمل شتى مظاهر الحضارة»[3].

وإذا أراد الباحث المنصف، أن يطبق معطيات هذا المنظور التوينبي على مسار حياة الراحل الكريم ـ جمال حمدان ـ فإنه سوف يجد أنّ الرجل، عندما اختار الاعتكاف كمنهج حياة على مدار ثلاثين عاماً مضت، قبل موته وأصبحت في ذمة التاريخ إنما كان

(1) أحمد محمود صبحي: **في فلسفة التاريخ**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1395هـ ـ 1974م، ص 282.
(2) أ.د. عاصم الدسوقي: **البحث في التاريخ «قضايا المنهج والإشكاليات»**، مكتبة القدسي، القاهرة، 1406هـ ـ 1986م، ص 140.
(3) أ.د. عاصم الدسوقي: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

يتمثل في ذهنه الاستيعابي حياة هؤلاء الكوكبة المختارة من خلاصة البشر على مدار التاريخ، ويقف على قمتهم سيدنا محمد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ الرائد الأول للحضارة الإسلامية. وغير خافٍ على أحد، بأن كلّ المسلمين مأمورين بالاقتداء به في حياته ومماته «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً» (الأحزاب: 21).

ومن هنا يمكن القول بأن التحليل العلمي الدقيق لأبعاد هذه الظاهرة الحضارية، يشي لنا بأن جمال حمدان ـ عندما اعتكف بعيداً عن المجتمع في بيته ـ لم يكن نشازاً؛ وربما كان تنكُّر المجتمع العلمي ـ الجامعة ـ لإنجازاته وفتوحاته الإبداعية في الحقل الجغرافي، هو الذي حدا به إلى الاعتكاف في بيته. وبذلك يكون جمال حمدان مفكراً واعياً، قد رنا ببصره الثاقب نحو الآفاق الرحبة للمستقبل المنشود لهذه الأمة، ذات البصمات الحضارية الحيَّة على جبين التاريخ البشري، في ما يستقبلها من أيام على ظهر هذا الكوكب الأرضي. ولعل في هذا ما يجعلنا نعتبره بمثابة درة نفيسة لامعة، وسط هذا العقد الثمين، وذلك لأن اعتكافه الحضاري هذا، قد أفرز للمكتبة العربية المعاصرة نتاجاً فكرياً ـ منقطع النظير ـ يندر أن يتفتق عنه ذهن عالم أو مفكر ـ أو حتى فريق عمل متكامل ـ سواء من حيث الكم أو الكيف، وذلك نظراً لأنه كان فكراً ديناميكياً اتّسم بالتأصيل الحضاري للمشروع الحمداني، الذي جاء على قدر من أجل انعتاق الأمة حضارياً، وذلك حتى يتسنّى لها تحقيق الاستقلال الحضاري الناجز في جميع مناحي الحياة، حتى تعود لها الريادة الحضارية على أمم الأرض، كما كان العهد بها من قبل. وفي هذا ما لعله يشي للناس بحقيقة وسطية هذه الأمة، كما أراد لها ربها الأعلى «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً» (البقرة: 143).

ولعل إلقاء نظرة طائر على المعالم العامة، للنتاج الفكري لِـ جمال حمدان تبلور لنا، إلى أي مدى كانت حياة الرجل في قمة الدينامية الفكرية على مدار أربعين عاماً ـ أي منذ حصوله على درجة الدكتوراه في فلسفة الجغرافيا، العام (1953) والموسومة بـ «سكان الدلتا»، وحتى رحيله عن عالمنا الزائل في ربيع العام (1993م).

ولقد كان لهذا النتاج الفكري المتميز، أثر فعَّال في واقعنا الثقافي المعاصر، وتتجسد البدايات الأولى لمعالم هذا النتاج الفكري الثري، عبر معطيات أطروحته للدكتوراه، التي حصل عليها من جامعة «ريدنج البريطانية»، العام 1953م. ويؤكّد هذا العمل الأكاديمي، ولا ريب مدى الأصالة العلمية، لنبوغ جمال حمدان المبكر في هذا الحقل المعرفي الفريد، منذ خطواته الأولى على درب العلم. ولعل هذا هو الذي يؤكد لنا بأن المعطيات الحمدانية، التي تبلورت بعد هذا النتاج، قد تناغمت تناغماً عضوياً مع هموم وقضايا هذه الأمة، التي أنجبت جمال حمدان، سواء في أفراحها أو أتراحها المتلاطمة، التي واكبت حياته الأرضية التي امتدت على مداد ستة عقود ونصف من

الزمان فيما بين (8/2/1928 ـ 17/4/1993م).

ولقد أكّد جمال حمدان منذ اللحظات الأولى لحياته التأليفية، على أصالة انتمائه العقدي والحضاري لأمته العربية بالمفهوم الجغرافي. وجاء صدى ذلك الانتماء ضمن محتوى كتابه الحيوي الموسوم بـ **دراسات في العالم العربي**؛ وفي هذا الصدد يقول: «ولعل الحلقة السعيدة التي تحف بقلب الجزيرة الميت هي البداية السعيدة. فحول مهد العرب دائرة متصلة وشبه ذلك من الأراضي الزراعية الخصبة الغنية تجعلها «كخرقة بالية حواشيها من الذهب»: الهلال الخصيب في الشمال بقطاعيه العراق والشام، وهلال خصيب آخر أقل غنى نوعاً في الجنوب يجمع الحسا وعُمان وحضرموت واليمن والحجاز. ثم يغلق الدائرة وادي النيل في مصر»[4].

وفي العام الميلادي (1958م) أفرز عقل جمال حمدان الوقاد، نتاجه الفكري الحيوي، الموسوم بـ **أنماط البيئات**، وهو محاولة علمية دقيقة في حقل الجغرافيا الحيوية لدراسة التنوع النباتي والغطاء الأخضر السائد على ظهر هذا الكوكب الأرضي، والكتاب صغير الحجم، لكنه كبير المحتوى العلمي. وكأني بالعام (1958م)، قد أبى أن يرحل إلى ضمير التاريخ، إلاّ بعد أن يشهد لِـ جمال حمدان، إفرازه الفكري الثالث. وهذه المرة جاء النتاج العلمي لجمال حمدان، في إطار جغرافيا العمران أي كتابه **دراسة في جغرافيا المدن**. وكانت دراسته لهذه الظاهرة العمرانية الفريدة في تاريخ الحضارات، من منظور إسلامي عام ـ على حد تعبير الأستاذ صبري قنديل ـ ولقد درس جمال حمدان المدن من منطلق أنها وليدة الحضارة، أو هي الحضارة ذاتها، وعنده أن المدن هي واجهة الحضارة، وذلك لأنها تمثل المؤشر الدقيق الذي يؤشر للارتقاء الحضاري الشامل. وفي ضوء التحليل المنهجي الدقيق الذي اتسمت به هذه الدراسة الواعية، يمكن اعتبار المدن بمثابة البوتقة التي تنصهر فيها مقومات التحضر الإنساني في جميع مناحي الحياة المتباينة، التي تنبثق عن مناشط الإنسان في دورته الحضارية، التي تحيا فيها وتعطي النسغ المتميِّز لحياته في التاريخ وذلك لأن الحضارة هي التاريخ الحي.

وعندما أطل على الدنيا العام (1960م)، قدم جمال حمدان رؤيته الاستراتيجية الثاقبة لمستقبل أمته العربية من المنظور الاقتصادي، وقد تبلورت أبعاد هذه الرؤية المستقبلية، عبر نتاجه الفكري الحيوي، الموسوم بـ **[بترول العرب ـ دراسة في الجغرافيا البشرية]**. وفي هذا ما لعله يشي لنا بأن الرجل، كان رائداً من رواد الدراسات المستقبلية في واقعنا الثقافي المعاصر. كما ذهب إلى ذلك المفكر الإسلامي الدكتور أحمد صدقي الدجاني، الذي يقول في هذا السياق: «لقد تناولت رؤى جمال حمدان المستقبلية عدداً من أكثر قضايا وطننا العربي وعالمنا الإسلامي وكوننا حيوية من قضية دور مصر في وطنها العربي والعالم»، إلى قضية «الاستعمار» وقضية

(4) جمال حمدان: **دراسات في العالم العربي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1378هـ ـ 1958م، ص 14.

«التحرير» إلى قضية «بترول العرب»، إلى قضية «الصهيونية واليهودية» إلى قضية «الإسلام السياسي» و «قضايا» العالم الإسلامي المعاصر، إلى قضايا «النظام العالمي» إلى قضية المدن في عالمنا. وهذه الرؤية المستقبلية لا تتوافر إلاّ لذوي النظر الشامل الذين يحيطون بالواقع القائم، ويتعمّقون فهمه من خلال تتبع حقائق المكان والزمان واستحضار سنن الحركة التاريخية وتحديد مجراها، ثم يُدخلون في حسابهم عاملي الحلم والفعل لدى الإنسان في الاجتماع الإنساني»[5].

وفي ضوء هذه الرؤية العلمية لمعطيات جمال حمدان المستقبلية، يكون جمال حمدان، قد اعتبر البترول سلاح مستقبلي، منذ اللحظات الأولى لتفجر ينابيعه الثرة الفياضة في الأرض العربية. وقد أكّد الواقع الاقتصادي الراهن لوضعية هذا السلاح الآن على الساحة عربياً ودولياً، مدى صدق النبوءات الحمدانية في هذا السياق، مما يجعل من نظرة جمال حمدان للبترول العربي نظرة حضارية ذات بعد مستقبلي، أكدت الأيام مدى صدقها، وهكذا يقدم الرائد دائماً لأمته عصارة فكره، ويكون سابقاً لعصره دائماً.

وفي العام الميلادي (1964)، قدم جمال حمدان إلى المكتبة العربية المعاصرة كتابه الفذ الموسوم بـ **المدينة العربية**، ولعلّ الذي يضفي على هذا الكتاب طابعاً من الحيوية المعرفية، هو أن جمال حمدان قد أكّد ضمن محتواه وسياقه العلمي، على أنّ المدينة العربية في واقعها التخطيطي وتراثها المعماري كانت بمثابة البوتقة التي انصهرت فيها مقومات الحضارة الإسلامية. وهذا من منطلق أنّ معطيات العمران الإسلامي، في هذا المضمار، تؤكد وبما لا يدع مجالاً للشك، على مدى حيوية هذه الظاهرة المعمارية، التي اتسمت بها المدينة العربية دون سواها من مدن الأرض قاطبة وذلك لأنها جمعت في تكوينها العمراني ما بين الثوابت والتحولات.

وفي نفس العام، أصدر جمال حمدان كتابه القيِّم في مجاله **الاستعمار والتحرير في العالم العربي**. والمطالع لمحتوى الكتاب يصل إلى حقيقة تاريخية مفادها، أن جمال حمدان ـ قد أكّد عبر معالجته الدقيقة المترعة برؤية المفكر الواعي ـ على أن الاستعمار للعالم العربي ـ بدءاً من القرن الثامن عشر، وحتى منتصف القرن العشرين ـ إنما كان ظاهرة غير حضارية وإنسانية، كما عكست أبعاد تلك الحقيقة، الصور المختلفة للاستعمار، سواء كان سياسياً أم حضارياً، ثم أكّد على أنّ تحرير العالم العربي من ربقة هذا الاستعمار كان ضرورة حضارية، قد فرضها تطلع الأمة العربية نحو مستقبل حضاري واعد بكل القيم المشعّة. وفي هذا الصدد يقول: «أما العالم العربي فله في هذا التحليل وضع خاص. فهو لم يكن ببعيد عن موطن الاستعمار الأوروبي، بل هو الجار المواجه لأوروبا مباشرة، ولا هو كذلك بالبيئة الطبيعية المغلقة أو الطاردة، ولكن الذي

---

(5) احمد صدقي الدجاني: جمال حمدان رؤاه المستقبلية، جريدة الخليج ـ العدد رقم (5110) ـ دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، الشارقة، السبت 1413/11/17هـ ـ 1993/5/8م، ص 6.

أعجز الاستعمار دونه إنما هو العامل الحضاري. فرغم كل شيء كان للشرق العربي حضارة قديمة عريقة وقوة أكبر من هينة. ومن هنا ظل صامداً للضغوط الأوروبية المتزايدة التي تهاوت أمامها ـ مثلاً ـ حضارة آسيا الموسمية في الهند وجزر الهند. إلى أن كانت طفرة الغرب الحضارية الحاسمة في الانقلاب الصناعي، فكان إيذاناً بعدم جدوى المقاومة. ومرة أخرى، كما في أفريقيا وإن يكن لأسباب حضارية لا طبيعية، عجزت أوروبا عن التغلب على العالم العربي بحضارة الانقلاب التجاري ولكنها نجحت بحضارة الانقلاب الصناعي»[6].

وفي العام الميلادي (1966) ظهر في المكتبات كتابه الفريد في بابه والموسوم بـ **أفريقيا الجديدة ـ دراسة في الجغرافيا السياسية**. وهو بمثابة محاولة علمية جادة لرد الاعتبار الحضاري لهذه القارة السمراء التي ظُلمت طويلاً على يد الاستعمار الغربي، ذلك الاستعمار الذي سلب مقدرات ومكاسب هذه القارة وجثم على أرضها حقباً طويلة. ولكن هذه المرة حاول جمال حمدان كواحد من أبناء هذه القارة، أن يبلور ـ وفقاً لمفاهيم ومعطيات ـ الجيوبوليتيك «الجغرافيا السياسية» ـ الوضعية المتميزة لأفريقيا الجديدة ـ بعد التحرير ـ على خارطة الكون، وفي هذا تأكيد على مدى أصالة انتماء جمال حمدان لقارته الأم، التي تمثل مصر بوابتها الشمالية الشرقية ومدخلها الطبيعي.

وفي العام الميلادي (1967) ـ أي عام النكبة الثانية ـ تلك النكبة التي حلّت بالأمة العربية بعد هزيمتها أمام الكيان الصهيوني، وأصابت انعكاساتها السلبية العقل العربي في الصميم، حتى أنه عاش في حالة تشبه التوهان لحين من الوقت، فضلاً عن اهتزاز مؤشّرات الانتماء الحضاري لدى الجيل الذي عاصر وقائع هذه الهزيمة. ولكن جمال حمدان المفكر الأصيل، يثبت مرة أخرى أنه قادر على مواجهة التحديات، حتى وإن كان معتزلاً للحياة العامة، إلاّ أنه في قلب المعركة الحضارية التي تخوض غمارها مصر ـ ولا زالت ـ ضد الصهيونية العالمية. وتأكيداً منه لمدى موضوعية هذه الحقيقة التاريخية، قدم للمكتبة العربية نتاجه الفكري الواعي، الموسوم بـ **اليهود أنثروبولوجياً**. وهو على الحقيقة عبارة عن معالجة بحثية دقيقة للتأصيل الوجودي للصهاينة، هؤلاء الذين يزعمون ـ زوراً وبهتاناً ـ صلتهم العضوية، بيهود الكتب المقدسة، العهد القديم «التوراة» والعهد الجديد «الإنجيل».

ولم يكتفِ جمال حمدان ببلورة مدى تهافت دعوى الصهيونية هذه، بل إنه قد حاول جاهداً أن يؤصّل تأصيلاً علمياً دقيقاً للأبعاد الحضارية لصراعنا مع اليهود. ولعل هذا المسلك هو الذي ألّب عليه قوى البغي والعدوان كهؤلاء الذين ساروا على

(6) جمال حمدان: **الاستعمار والتحرير في العالم العربي**، دار الهلال، القاهرة، 1384هـ ـ 1964م، ص 22 ـ 23.

نفس الدرب.

ولكي يتسنّى لنا أن نؤكّد على مدى عمق الرؤية الحضارية لدى جمال حمدان، لصراعنا الديني مع اليهود فإنه لا بد من اقتباس الشواهد التي تؤكد ذلك، من سياق كتابه الآنف، حيث يقول في هذا الصدد: «في البداية لا بد أن نتعرف إلى حقيقة من حرَّكوا سعار هذا الصراع الدامي ـ الذي يعد أطول صراع في التاريخ ـ أي اليهود. ولعل هذا يحتم علينا تبني الرؤية التاريخية، التي تساعدنا على معرفة متى ظهر اليهود على مسرح التاريخ لأول مرة؟! والإجابة عن هذا التساؤل عند جمال حمدان هي إننا نسمع عن اليهود في التاريخ أول ما نسمع عنهم مع سيدنا إبراهيم «أبو الأنبياء عليه السَّلام»، الذي ظهر مع قومه في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذي كان يؤلف دولة الكلبانيين في أور»[7].

ولم يمضِ عام النكبة [1967 م]. حيث كانت الأمة العربية لا تزال تعيش تحت وطأة كابوس الهزيمة الخانق إلاَّ بعد أن شهد للدكتور جمال حمدان هذا المُعطى الفكري الحيوي، الذي شعَّ به مصباحه المعرفي الوضَّاء، مجسِّداً بذلك ألق عبقريته المتميزة. ولم يكن هذا الألق الذي جاء كفلق الصبح، إلاَّ نتاجه الفكري، الذي يؤكد وبكل الموضوعية على النبوغ الحمداني، إنه كتاب [**شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان**] في طبعته المصغرة، التي صدرت ضمن سلسلة كتاب الهلال، وقد قيل الكثير عن هذا الإسهام الفكري الواعد بقدر ما هو واعٍ. ومع هذا تبقى كلمة في حق هذا الكتاب ومفادها، أن جمال حمدان أكّد في هذا الكتاب على أنّ مصر «كنانة الله في أرضه»، ذات شخصية حضارية متميزة ـ من المنظور الجغرافي والتاريخي ـ ومصر وإن كانت قد هُزمت سياسياً وعسكرياً في بعض الجولات الحربية في صراعها المرير مع أعدائها على مدار التاريخ، إلاَّ أنها لم تُهزم حضارياً. وفي هذا دلالة على أنها تمتلك وباقتدار كل مقومات النصر، فضلاً عن الريادة الحضارية، على مستوى العالم وذلك نظراً لأنها واسطة العقد بين قارات العالم القديم «آسيا ـ أفريقيا ـ أوروبا». يضاف إلى ذلك أنّ مصر هي قلب العروبة النابض، وقلعة الإسلام الحصينة، وديوان الإسلام على حد تعبير ابن خلدون فيلسوف الحضارة الإسلامية الأول ـ فهل بعد هذا يمكن لأحد ما أن ينكر أن جمال حمدان، كان بمثابة العاشق لمصر.

وفي العام الميلادي (1968): تفتق ذهن جمال حمدان عن كتابه الخطير الموسوم بـ [**استراتيجية الاستعمار والتحرير**]، ولعلّ الذي يضفي على هذا الكتاب، طابعاً من الدينامية المتفجرة في موضوعه، هو أن الدكتور جمال حمدان قد تنبَّأ من خلال سياقه

(7) جمال حمدان: **اليهود أنثروبولوجياً**، المكتبة الثقافية رقم (169)، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1386هـ ـ 1967، ص 8.

العلمي بزوال الاتحاد السوفيتي ـ ومن بعد أميركا ـ والناظر إلى الواقع السياسي للعالم في أيامنا هذه، يرى أن التاريخ، قد أكد مصداقية هذه النبوءة، التي جاءت كانعكاس طبيعي لاستقرائه الحي لتاريخ الظاهرة الاستعمارية قديماً وحديثاً، ولا سيما استعمار الأمبراطوريات الكبرى كروما وفارس في التاريخ القديم، الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس «بريطانيا العظمى، فرنسا، في العصر الحديث». وهنا تظهر ـ وبكل جلاء ـ عبقرية جمال حمدان، المُنظِّر الجغرافي والعالِم التاريخي، والمحلِّل السياسي الواعي.

وفي هذا السياق، نرى أنّ أهم ما جاء في هذا الكتاب مجسداً للحقيقة البغضاء، والوجه الكريه للاستعمار إبان عنفوانه وفقاً للمنظور الحمداني ـ إذا صحَّ التعبير ـ هو قوله بهذا الصدد: «لقد كان الاستعمار في أوج بطشه، يبرر نفسه، بنظريات القهر والتفوق العنصري، حتى إذا استشعر نهايته وطاردته عقدة الذنب بحث منافقاً ـ عن التبرير في نظريات الإنسانية والأخوة! وبين النقيضين خرج من النظريات ما يندى له اليوم جبين العلم والحقيقة خجلاً، ضمن نظريات القهر والتفوق بدأ بتقسيم حضاري للأجناس أو تقسيم جنسي للحضارات فزعم مرة أن «الرجل الأصفر يعيش في الماضي، والأسود في الحاضر، أما الأبيض فيعيش في المستقبل». ومرة أخرى وضع نظرية «الأجناس الأطفال». وأخيراً انتهى الاستعمار مع العنصرية النازية إلى تصنيف بيولوجي للأجناس يميز بين الأجناس السادة «HERRENVOLK» وهم البيض والأجناس الفعلة «HILFENVOLK» وهم «الملونون» وكل جعل مراتب ودرجات»[8].

ومع البدايات الأولى للعقد السابع من القرن العشرين ـ الذي أوشك على الرحيل ـ ألف جمال حمدان كتاب **العالم الإسلامي المعاصر** وفي هذا الكتاب الحيوي، تتبلور ملامح التكوين العلمي لجمال حمدان، ذلك التكوين الذي يتّسم بعمق التحليل وأصالة التفكير، فضلاً عن الرؤية العلمية الدقيقة، لوضعية العالم الإسلامي المعاصر على الساحة الكونية، وذلك من خلال المنهجية التي اعتمدها. ولعل أهم آليات هذه المنهجية التطبيقية، هو استخدامه لتلسكوب الواقع التاريخي، وميكروسكوب الوضع الراهن، وهوروسكوب المستقبل، وذلك بغرض استشراف معالم المستقبل المنظور واللامنظور لهذا العالم في قادم الأيام الآتية من ضمير الغيب.

وفي هذا السياق، جاءت مرئيات جمال حمدان لأبعاد الواقع الحضاري، لهذا العالم على خارطة الكون، فضلاً عن ذلك فإنه تناول وبموضوعية علمية، أهم قضايا هذا العالم المثخن بالجراح النازفة، وعلى رأسها قضية فلسطين التي تعتبر محور ارتكاز الصراع الإسلامي الصهيوني الذي هو على الحقيقة ـ صراع وجود وليس صراع حدود ـ وفقاً للمنظور الحمداني. ولقد نال هذا الصراع وأبعاده الحضارية، عناية فائقة من قبل هذا المفكر الرائد، تبلورت القسمات البارزة لها عبر صفحات واسعة على خارطة نتاجه

(8) جمال حمدان: **استراتيجية الاستعمار والتحرير**، دار الشروق، بيروت ـ 1403هـ ـ 1983م، ص 119 ـ 120.

الفكري، قلما نجد لها نظيراً عند غيره من مفكري الإسلام المعاصرين، منذ أن انبثق هذا الصراع من رحم التاريخ، إلى أن استفحل خطره على الإسلام والعروبة، وأصبح ناشباً على أشده، كما هو حاله الآن.

وفي ضوء ما تقدم، يمكن القول بأن هذه المنطلقات الحمدانية ـ إذا صحَّ التعبير ـ تؤكد على مدى أصالة جمال حمدان، كمفكر واعٍ ومسلم واعد. وذلك لأنه قد جسَّد عبر معطياته الفكرية في هذا الإطار على مدى انتمائه الأصيل للأمة الإسلامية، سواء من المنظور العقدي أو الحضاري. وكأني بـ جمال حمدان، وقد أبى أن يرحل عن عالمنا الزائل، إلاَّ بعد أن يؤكد على الديناميكية الحضارية للعالم الإسلامي، فأفرز عقله الوقاد، نتاجه الفكري الموسوم بـ **جغرافيا العالم الإسلامي** ـ 2000 صفحة، الذي لم يرَ النور بعد، حيث رحل جمال حمدان إلى العالم الآخر، قبل طباعته، ولا زالت مخطوطة هذا الكتاب الحيوي ضائعة، ولم يعثر عليها حتى يوم الناس هذا. فيا ترى هل يتم العثور عليها يوماً ما أم أنها ضاعت إلى الأبد؟!.

وفي غضون العقد السابع للقرن العشرين أيضاً، صدر كتابه **بين أوروبا وآسيا ـ دراسة في النظائر الجغرافية**. ولقد تناول جمال حمدان في هذا الكتاب بالدراسة والتحليل، أوجه التناظر فيما بين أكبر قارتين في الكون، من منظور الجغرافيا الإقليمية. وذلك من خلال عقد المقارنة العلمية بينهما في هذا السياق جغرافياً وحضارياً. ولعل مرجع هذا هو أن قارة آسيا هي أكبر مستودع بشري في العالم المعاصر. أما قارة أوروبا فهي صاحبة الحضارة المهيمنة على العصر. وهنا يكشف جمال حمدان عن مدى عمق حسه الحضاري المتناغم مع روح العصر.

وفي هذه الأثناء، صدر كتاب **الجمهورية العربية الليبية**، لـ جمال حمدان، وهو دراسة جغرافية أصيلة عن هذا العضو الحي من الوطن العربي الكبير. وكان جمال حمدان، يأمل ـ لو امتد به العمر ـ في أن ينجز أعمالاً علمية مماثلة، عن باقي الدول العربية، من الماء إلى الماء. ولكن القدر لم يمهله، حتى يرى هذا المشروع النور، فلقد ترجل الفارس، قبل أن يحقق كل طموحاته العلمية، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وجمال حمدان لم يكن في حالة انفصام مع انتصارات أمته، بل كان يتناغم بفكره، مع أفراحها وانتصاراتها الإيمانية. وقد تمثل ذلك بكل الصدق بعد الانتصار الحاسم للأمة العربية، في معركة العاشر من رمضان (1393هـ) ـ السادس من أكتوبر (1973م)، حيث جاء صدى هذه الفرحة، ضمن محتوى كتابه الحيوي الموسوم بـ **6 أكتوبر في الاستراتيجية العالمية**، الذي أكّد فيه على أنّ نصر أكتوبر المجيد كان بمثابة ضربة عسكرية قاصمة، أحدثت وجعاً في قلب إسرائيل. ولا ينكر أحد بأن هذا الانتصار الحربي الحاسم، قد أعاد للأمة العربية كرامتها وعزتها التي أهدرت ـ قسراً عنها ـ بعد النكبة الثانية في العام الميلادي (1967).

فضلاً عن ذلك ترك هذا الانتصار الإيماني بصماته البارزة، على وضعية العرب بين أمم الأرض، مما أضفى على واقعهم نوعاً من الإشراق بعد القتامة التي شابته. ولعلّ أهم البصمات الحية لانتصار السادس من أكتوبر على الواقع العربي، هي تلك النقلة النوعية في الإيرادات العربية التي جاءت كانعكاس طبيعي لتلك الجرعة المنشطة التي أحدثت نوعاً من الحيوية في الاقتصاد العربي بعد زيادة أسعار البترول زيادة ملموسة، لم تكن متوقعة من قبل ولا من بعد، كما أكد ذلك الواقع الراهن لأسعار البترول، رغم أنّه سلعة حيوية من سلع الطاقة على المستوى الكوني.

وفي منتصف العقد السابع من القرن العشرين، أرادت مصر فتح قناة السويس ـ الشريان الملاحي الحيوي ـ أمام حركة الملاحة العالمية، وذلك بعد إغلاقها لمدة ثماني سنوات، بعد العدوان الصهيوني الغاشم على مصر. وفي هذه الأجواء، صدر كتاب **قناة السويس ـ نبض مصر** الذي يؤكد على مدى حيوية قناة السويس لمصر وللعالم، فضلاً عن الصلة العضوية للقناة بالصراع العربي الإسرائيلي. والمطالع لمحتوى الكتاب ـ رغم صغر حجمه ـ يستطيع أن يستشف، بأن جمال حمدان، كان مستوعباً لكل إشكاليات الصراع العربي الصهيوني، استيعاباً موضوعياً، ينم عن عبقريته، التي أحاطت بكل تداعيات هذا الصراع. وفي هذا الصدد يقول: «إذا كانت فلسطين من بين العرب هي كبرى ضحايا إسرائيل بداهة، فإن مصر بعدها هي أكبر من عانى من وجودها، ليس فقط بما بذلت من دم ومال. ولكن أيضاً بما تتعرض له من أزمات ومشاكل من الداخل والخارج. وليس هناك أدنى شك في أن إسرائيل هي أكبر عامل منفرد في تأزيم، ولا نقول «سرطنة» اقتصادها وتعثر تخطيطها وخلخلة واضطراب تنميتها. إنها باختصار النواة الدفينة الكامنة والبؤرة «الصديدية» المزمنة خلف كل المتاعب والأخطار السياسية الاستراتيجية وكذلك الاقتصادية والمادية التي تحدق بقناة مصر وبمصر القناة»[9]. فهل من يصدرعنه، مثل هذا التحليل الدقيق، الذي يؤكد على استمرارية الخطر الداهم، الذي يمثله الوجود الصهيوني الشرس، على مستقبل مصر «القلب النابض للعالم العربي»، يقال عنه، إنه كان يعيش في عزلة عن إيقاع حياته مجتمعة؟!. والإجابة عن هذا التساؤل الحائر هي «لا وألف لا»، وذلك لأن جمال حمدان، لم يكن يعيش في عزلة سلبية، بل إنه كان في قلب المعركة. ولذا ـ يمكن اعتباره ـ وبكل الموضوعية ـ رائداً من رواد التنوير الحضاري، الذين نفتقدهم في هذا العصر النكد. وذلك لأنه كان بمثابة الجراح الحضاري، الذي أخذ على عاتقه مهمة علاج أمته من جراحها النازفة، في أكثر من منحى من مناحي الحياة، فأمسك مبضعه الدقيق، وراح يُشرّح واقعها المتأزم، من أجل علاج أمراضها الخبيثة سواء كانت على المستوى السياسي أم الاقتصادي، وذلك لكي تعود لها حيويتها وتألقها الحضاري، الذي استمر عشرة قرون من الزمان، قبل أن يخبو مصباحها. ولكن

(9) جمال حمدان: **قناة السويس نبض مصر**، عالم الكتب، القاهرة، 1395هـ ـ 1975م، ص 34.

القدر عاجله فمات قبل أن يرى ثمار مشروعه الفكري، الذي نذر له حياته التي امتدت زهاء ستة عقود ونصف من الزمان هي عمر حياته الأرضية.

ومع انبثاق عقد الثمانينات من رحم الزمن، قدم جمال حمدان إلى المكتبة العربية المعاصرة، نتاجه الفكري المتميز، الذي ارتبط به ارتباطاً عضوياً حياً، مما جعل هناك آصرة ودية بينهما، فلا تذكر مصر وشخصيتها إلاّ ويذكر جمال حمدان، كعاشق لأرض الكنانة. إن هذا الكتاب ذا المجلدات الأربعة، التي تجاوز عدد صفحاتها الـ «4000» صفحة، كان في صورته الأولى، مجرد كتاب صغير ضمن سلسلة **كتاب الهلال** الشهرية. ولقد توالى صدور، هذا العمل الموسوعي ـ بصورته الحالية ـ بأجزائه الأربعة تباعاً على النحو التالي:

أ ـ الجزء الأول في العام «1980م».

ب ـ الجزء الثاني في العام «1981م».

جـ ـ الجزء الثالث في يناير «1984م».

د ـ الجزء الرابع في يوليو «1984م».

ولعل أهم ما جاء بشأن هذا الكتاب الحيوي، ونسيه كل من تحدث عن صاحب **شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان** وموسوعته ـ على حد تعبير الباحث سيد حمدي ـ هو ذلك التحليل الحضاري، الذي حملته مقدمة هذه الموسوعة في جزئها الأول. وفي هذا التحليل الحضاري، فضحاً للنفاق الذي فجرته فاجعة وفاته على هذا النحو الغامض، وفي هذا الصدد يقول الباحث: «لقد ساق الباحثون الكثير من أعمال الدكتور جمال حمدان مستعرضين ملامحها العامة دون أن يتطرق أحد منهم ـ على حد علمي ـ إلى النقد الصادق الموجع الذي ساقه الدكتور جمال حمدان في المقدمة إلى الشخصية المصرية. فالمقدمة تقع في إحدى وستين صفحة للكتاب المرجعي الضخم المكون من أربعة أجزاء وهي تعد من أجمل وأرق ما كتبه الراحل، قبل عقد من الزمان من الرحيل، الذي غيبه عنا إلى الأبد».

وهذا النقد الذاتي الذي وجهه جمال حمدان للشخصية المصرية هو قوله: «عسى ـ دعنا نأمل ـ أن يجد كل مصري نفسه في هذا الكتاب. ولسوف يرضى، وذلك لأن هذا الكتاب يضع مصر برمتها كالبللورة في البؤرة ويستقطر مكنون شخصيتها حتى تستقطب في معادلة. وإنها يقيناً لرحلة شاقة، إلاّ أنها شيقة، وعرة غير إنها إلى أقصى حد واعدة، مجهدة، لكنها بالقدر نفسه في ما نرجو مجزية». إنه جمال حمدان العالم والفيلسوف، الذي كتب عن مصر ما لم يكتبه عنها أحد غيره على مدار التاريخ. فهل بعد هذا يحق لأحد من المتخرصين أن يقول بأن جمال حمدان كان يعيش في عزلة. فأية عزلة هذه التي يتحدثون عنها؟. وماذا قدموا هم لمصر، وهم الذين عاشوا الحياة بطولها وعرضها، وسلبوا مقدرات مصر وبالتالي دفع أبناؤها المخلصين الثمن غالياً من

حياتهم وعاشوا في غربة داخلية وأحياناً خارجية، فرضت عليهم فرضاً، مما جعلهم يتركون مصر وينتشرون في أرجاء العالم شرقاً وغرباً.

وفي العام الميلادي (1984م). قدم جمال حمدان إلى المكتبة العربية المعاصرة، كتابه الواعد في إطاره، والموسوم بـ **من خريطة الزراعة المصرية.** وفي هذا الكتاب جاءت الرؤية الموضوعية، المترعة بالتأصيل العلمي، لواقع الاقتصاد المصري المعاصر ومستقبله المنظور من خلال أبرز عناصره الحيوية (الزراعة). وفي هذا السياق، يمكن القول، بأن التحليل العلمي الدقيق، الذي جاء بادياً عبر مقدمة الكتاب، هو الذي يبلور لنا الأبعاد الحقيقية لمستقبل الزراعة المصرية من المنظور الاقتصادي البحت. وفي هذا الصدد يقول جمال حمدان: «ما تزال الزراعة ـ هي ـ قاعدة الأساس في الاقتصاد المصري المعاصر، مثلما كانت رافعته الفعالة ومحركته الأولى وخاصته الأولية في بدايته الحديثة. فلئن كانت الصناعة قد تفوقت أخيراً على الزراعة في مساهمتها في الدخل القومي، فإن الأخيرة ما زالت تستوعب القطاع الأكبر من العمالة والقوة العاملة في البلد، أي ما زالت الحرفة الأساسية لأغلبية المصريين، فضلاً عن أنها هي التي قدمت قاعدة الانطلاق الصلبة للصناعة أصلاً. والعلاقة بينهما من ثم علاقة حميمة مثلما هي وظيفية وثيقة. والواقع إنهما معاً كالصرح والأساس أو كالتمثال وقاعدته لا انفصال لهما ولا مفر من التناسب والتناسق بينهما. وإذا كان البعض يشبه اقتصاد الدولة أية دولة بالشجرة المكتملة الناضجة، جذورها الزراعة وساقها الصناعة وفروعها التجارة، فلعل هذا التشبيه لا يصدق مثلما يصدق على الاقتصاد المصري العريق الجذور»[10].

وفي ضوء ما تقدم، يمكن القول، بأن هذه الإطلالة المعرفية، على الخط العام لأبرز مؤلفات جمال حمدان، تشي لنا بأن المعطيات الفكرية التي جاءت بادية عبر محتواها وسياقها، وإنما تجسد وبكل الموضوعية آفاق ما يمكن تسميته بالمدرسة الحمدانية في واقعنا الثقافي المعاصر.

ولقد استمرت حياة جمال حمدان، بعد صدور هذا الكتاب حوالى عقد من الزمان. وقبل أن يكتمل هذا العقد، رحل عنَّا مفكرنا إلى العالم الآخر، بعد أن لبى نداء ربه الأعلى. ويؤكد المنظور النسقي لمراحل حياة الدكتور جمال حمدان فكرياً، بأن ذهنه الوقاد، قد تفتق خلال هذه المدة الزمنية الأخيرة من حياته الأرضية، عن أعظم ثلاثة نتاجات فكرية شهدها القرن العشرون ـ الذي أوشك على الرحيل ـ وهي لم ترَ النور بعد، وكان المفكر ينوي نشرها في الأيام التالية لموعد رحيله المأساوي وذلك لو كان قُدر له الحياة بعد ذلك اليوم، ولكنها إرادة الله شاءت ذلك. والمؤلفات الثلاثة هي على

(10) جمال حمدان: **من خريطة الزراعة المصرية**، دار الشروق، بيروت ـ 1404هـ ـ 1984م، ص 7.

النحو التالي:

الكتاب الأول: **علم الجغرافيا ـ دراسة في فلسفة العلم.**

الكتاب الثاني: **جغرافيا العالم الإسلامي.**

الكتاب الثالث: **اليهودية والصهيونية.**

وكان الراحل الكريم ينوي نشر الكتاب الثالث، يوم الأحد 18/4/1993م، أي بعد موته بيوم. ولعل هذا هو الذي يشي لنا بأن هناك أسباباً غير مباشرة كانت وراء اختفاء جمال حمدان عن مسرح الحياة قبل أن يرى هذا الكتاب النور. وإلاً لماذا اختفت مخطوطة هذا الكتاب، الذي يُعد من أخطر ما كتب الراحل عن الصهيونية؟ ـ رغم كثرة ما كتب عنها ـ وذلك لأن هذا الكتاب يمكن اعتباره بمثابة القنبلة، التي كان سيفجرها جمال حمدان في وجه الصهيونية العالمية. وفي هذا السياق، يمكن القول بمدى مصداقية تلك الرؤية التي ارتآها بعض الباحثين، الذين ذهبوا إلى أن هنالك يداً خفية كانت هي المسؤولة أولاً وأخيراً عن قتل جمال حمدان في هذا اليوم بالذات السبت 17/4/1993م، ومما يعضد هذه الرؤية هو أن جمال حمدان نفسه، قد أفصح في حواره الصحفي الأول والأخير ـ منذ اعتكافه ـ الذي أدلى به لمجلة **الشباب** القاهرية، ونُشر على صفحات عدد مارس (1993م) ـ أي قبل رحيله بشهر واحد وصرَّح عبر سياقه بأنه على وشك أن يضع اللمسات الأخيرة لكتبه الثلاثة هذه.

ومن هنا لا يمكن أن يكون هنالك ريب في أن هذا الإفصاح كان له سبب مباشر أو غير مباشر، في أن يؤدي بحياته الأرضية الزائلة على هذه الصورة الفاجعة غير المتوقعة، لا سيما والأمة العربية تعيش هذه اللحظات التاريخية الحاسمة من حياتها، حيث إنها تمر بهذا المنعطف الحضاري، الذي لا يدري أحد إلى أين وجهته، طالما أنها لا تعود إلى منابعها الصافية، ولا تعير بالاً لحياة النبغاء من أبنائها، كما تؤكد ذلك فاجعة جمال حمدان، في حين أنها تهتم بشرائح اجتماعية أخرى لا تمت للتقدم الحضاري بأي صلة لا من قريب أو بعيد.

وأخيراً وليس آخراً، فهذه هي الملامح العامة، لحياة جمال حمدان بين «الاعتكاف الحضاري والعودة المستنيرة». وفي ضوء سياقها الواقعي، يتأكد وبما لا يدع مجالاً للشك، بأنّ الرجل، كان عالماً جغرافياً، فضلاً عن كونه مفكراً استراتيجياً، اتسم فكره بالموسوعية، وذلك منذ البدايات الأولى لانتهاجه هذه الفلسفة الحياتية المتميزة، حيث اعتكف في بيته، تاركاً الجامعة والحياة العامة، وتفرغ للبحث العلمي الجاد بمفهومه الحضاري. وفي هذا ما لعله يضفي نوعاً من الديناميكية المتفجرة على المعطيات الفكرية لـ جمال حمدان. ولذا فإن اعتكاف جمال حمدان في بيته لم يكن موتاً، بل كان على الحقيقة في قمة الديناميكية والحيوية، سواء نظرنا إليه بمنظور العلم أو بمنظور الواقع. ولعل هذا هو الذي جعل اعتكافه حضارياً وعودته مستنيرة بكل ما تعني هذه الكلمة

من معنى ودلالة، بعكس الكثيرين غيره، والذين انغمسوا في ملذات الحياة حتى النخاع، فلم يقدموا شيئاً يذكر وطويت صفحاتهم الأرضية وكأنهم لم يكونوا.

وإذا كانت حياة جمال حمدان، قد انتهت في عصر يوم السبت الموافق 17/4/1993. فطويت بذلك صفحة ناصعة من صفحات الفكر العربي المعاصر، إلاَّ أنّ هذه الصفحة فكرياً وحضارياً لن تطوى، وذلك لأنها صفحة مشرقة تعيدها ذاكرة الدهر، ويذكرها لسان التاريخ. وذلك لأنها صفحة تقطر بالأصالة المنهجية والرصانة العلمية. فجمال حمدان كمفكر كان يمتلك القدرة عى النفاذ إلى عمق التاريخ، فضلاً عن الاستشراف لمعالم المستقبل الحضاري المنظور واللامنظور للأمة الإسلامية على هذا الكوكب الأرضي. وذلك لأن التاريخ الذي عشقه جمال حمدان حتى النخاع، وقُدر له، أن يموت شهيداً في محرابه بعد أن بذل حياته في سبيل بعث أمته بعثاً حضارياً، ما هو إلاَّ تلك اللحظة التي نحياها، فموتى الأمس كانوا أحياء، مثلما نعيش نحن اليوم، نحن الذين سنموت غداً لنصبح مثلهم في ذكرى التاريخ يوماً ما. فجمال حمدان ـ مرة أخرى ـ لم يمت كمفكر واعٍ، وإن كان مات كجسد فانٍ.

ولعل خير ما نختم به هذا البحث عن المسار الحياتي لجمال حمدان بين «الاعتكاف الحضاري والعودة المستنيرة»، هو تلك الكلمات التي صدرت عن محمد عاطف العراقي، الذي عرف مكانه وقدر العالم جمال حمدان وهو بصدد تأبينه بعد وفاته حيث يقول: «سيبقى جمال حمدان نموذجاً للأكاديمي الجاد، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. فقد أثبت أن الابتعاد عن المشاكل ليس هروباً بقدر ما هو سمو، وأن عزلة المجتمع قد تكون أحياناً أقوى من الاندماج فيه. لقد عرفته من خلال كتاباته الجادة التي تثبت أنه عاشق كبير لمصر والمعرفة والحضارة في نفس الوقت رحمه الله».

وفي هذا السياق الحضاري، جاءت كلمات الأستاذ محمد حسنين هيكل، الذي قال في هذا الصدد: «جمال حمدان يتماثل مع رفاعة الطهطاوي، حيث أنه يُعد مسافراً مثله إلى وطنه بمفتاح لفهم حياة وشخصية أمة تبحث عن نفسها في أعقاب حرب عالمية ضروس هزت وزلزلت قارات ومحيطات وربما تقاطعت مسالك سفر الرجلين ـ الطهطاوي وحمدان ـ على أمواج البحر الأبيض ذهاباً وعودة رغم انقضاء قرن ونصف من الزمان ـ بين سفر الإثنين ـ إلاَّ أن رؤى المسافرين العائدين من مواقع نظر متابينة تقابلت. فلقد كان جمال حمدان إنساناً بالغ الحساسية، شديد الكبرياء. وقد زادت على ذلك أخيراً مسحة حزن زاد انطباعها على قسمات وجهه، وشاعت في نبرة صوته. وقد حاول أن يعزي نفسه ـ أو يعزيني ـ قائلاً: إن حركة التاريخ دائمة ولكن اتجاهها ليس ثابتاً. وكان عهدنا بها أن تكون إلى أمام خطوتين وإلى وراء خطوة ـ ولعلنا الآن نرى بعداً مغايراً، حركة إلى أسفل ونحن شاهدنا انقلاباً لأنه كان بين السكان من لم يقدر ولم يرع حرمة وحق المكان. وكما حاولت دائماً فقد حاولت تلك المرة أن أقنعه

بالخروج من دير العزلة والعودة إلى دنيا الناس... ولم يقتنع مصراً على أنه اعتزل وحركة التيار إلى أمام، فكيف يعود والحركة معاكسة سواء إلى وراء أو إلى أسفل؟! وافترقنا، ولم أكن أعرف أنه فراق إلى الأبد وانشغلت بهذا الكتاب **اكتوبر 1973 - السلاح والسياسة.** حتى فاجأتني وأنا غارق فيه تلك النهاية المأساوية التي انتهت إليها حياة ذلك العالم الراهب المعتزل والمهموم بشخصية مصر وعبقرية مكانها الموقع والموضع. وربما من هنا خطر لي منذ البداية أن أهدي هذا الكتاب إليه».

وقبل أن نضع اليراع نتوجه إلى الله بأن يرحم جمال حمدان حياً وميتاً ويوم يُبعث حياً إن هذا أمل وما ذلك على الله بعزيز.